— ٣ —

اللغة الأمازيغية في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط

لا تزال دراسة اللغات تشكّل قطاعاً من القطاعات المهمَّشة في حقل الدراسات التاريخية باعتبارها تندرج في الفضاء الأدبي[(١)]، بينما هي في الواقع إشكالية تاريخية أيضاً لأنها شكّلت وسيلة للتعبير عن المخزون الحضاري المكتوب والمنطوق؛ كما جسّدت في الوقت ذاته أداة للتواصل بين أفراد مجتمع الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، ولغة التداول السائدة في كافة مناحي الحياة اليومية لساكنته.

وتزداد دائرة التهميش على الخصوص بالنسبة للغة الأمازيغية. فباستثناء عدد قليل من الأبحاث التي تصدت لمعالجة مسألة التعريب في بلاد المغرب الأقصى[(٢)]، يصطدم الباحث بشحّ المادة الإخبارية وقلة الدراسات التاريخية في هذا الحقل. ويُعزى ذلك في تقديري إلى عوامل يتعلّق بعضها بطبيعة اللغة الأمازيغية نفسها، بينما يتعلّق البعض الآخر بالمحيط السياسي والاجتماعي الذي تطورت فيه. وعموماً يُمكن تفسير هذا التهميش من خلال ثلاث مقاربات:

---

(١) من بين الدراسات الأدبية التي انصبت على الجانب اللغوي نذكر: ميلود التوري، **الحركة اللغوية بالمغرب الأقصى بين الفتح الإسلامي والغزو الكولونيالي: أ ـ تفاعل الألسن**، مطبعة أنفوبرايت، ٢٠٠١. وكذلك: «اللهجات العامية بالغرب الإسلامي الوسيط»، أطروحة دكتوراه دولة في جامعة كاليفورنيا، الولايات المتحدة، ١٩٧٨.

(٢) انظر: محمد حسن، «الأصول التاريخية للتعريب في المغرب العربي»، مجلة **المستقبل العربي**، السنة ٨، العدد ٧٢، فبراير ١٩٨٥، ص ٦٣ ـ ٧٨.

- Chaker, S., «Données sur la langue Bérbère a travers les textes anciens», *Revue de l'Occident Musulman et de la Mediterranée*, N° 31, 1981.

- Camps, Ga., «Comment la Berberie est devenue le Maghreb arabe», *Revue de l'Occident Musulman et de la Mediterranée*, N° 35, 1983, pp. 15-19.

١ ـ تتمثّل **الأولى** في ما يمكن أن نسميه بـ "استراتيجية الإقصاء". ذلك أن الأمازيغية شكلت لغة "المغلوب"، مقابل لغة "الغالب" وهي اللغة العربية التي فرضتها القوى العربية المنتصرة منذ بداية فتحها لبلاد المغرب الأقصى سنة ٦٢هـ/ ٦٨٢م، وجعلتها لغة رسمية، وأداة للتعبير عن نمطها الحضاري. ولتحقيق هذا الغرض، تجنّدت نخبة من العلماء لإعطائها المبرّر الشرعي كما تُثبت ذلك بعض النوازل والفتاوى[١]، مما أسفر عن إقصاء الأمازيغية كشكل من أشكال المنتوج المكتوب على الأقل.

٢ ـ أما المقاربة **الثانية** فتتمثل في هيمنة النمط الشفهي على التراث الأمازيغي نفسه إذا ما قُورن بالإنتاج المكتوب، خاصةً بعد الفتح العربي للمغرب الأقصى، وما تمخّض عنه من فراغ إنتاجي زاد اتساعاً أمام غزارة المنتوج الثقافي العربي المكتوب. فاللغة الأمازيغية لم تتعدَ على مستوى شكل الكتابة ما عرفته من تطوّر خلال المراحل الأولى من نشأتها، الأمر الذي يُفسّر شحّ النصوص التي وصلتنا منها، واقتصارها على النقوش المكتوبة التي وردت أحياناً مع إحدى اللغتين الفينيقية أو اللاتينية[٢].

٣ ـ بينما تتجلّى المقاربة **الثالثة** في المحيط السوسيو ـ ثقافي الذي تطوّرت فيه الأمازيغية كلغة للتداول. فإذا ما ذهبنا مع تحليل الحسن الوزان ـ وهو مؤرّخ فطن إلى علاقة الجغرافيا بالتاريخ فركّز على المعطى البيئي ـ، يُمكن الاستناد إلى المقولة السوسيولوجية المتمثّلة في البداوة والأمية اللتين وجدتا الأرضية الملائمة في الوسط الأمازيغي. فالمؤرّخ المنوّه به يقرّ بأن الأهالي الأمازيغيين عرفوا الكتابة الليبية ـ البربرية القديمة قبل أن يتحوّلوا إلى استعمال الحروف اللاتينية بعد الاحتلال الروماني للمغرب الأقصى، وإنْ كانت معظم الخطوط الأمازيغية المكتوبة على الآثار المعمارية التي خلّفوها مكتوبة بالحروف اللاتينية حسب قوله[٣]. كما يُلاحظ المؤرّخ نفسه أن حالة البداوة والأمية المهيمنتين في الوسط الأمازيغي حالتا دون وجود إنتاج ثقافي أمازيغي مكتوب، يمكّن من نفض الغبار عن هذه اللغة[٤].

---

(١) سُئل ابن رشد في إحدى النوازل: «عمّن قال لا يحتاج إلى لسان العرب هل يلزمه شيء أم لا؟». فردّ ابن رشد في جوابه: «إنه جاهل وعليه التوبة وإنه لا يصحّ شيء من أمور الديانة والإسلام إلا بلسان العرب». انظر: «نوازل ابن رشد» (مخطوط في الخزانة العامة بالرباط، رقم ك ٧٣١)، ص ٣٢٣. وقد سعى بعض الكتاب العرب إلى اشتقاق أسماء القبائل البربرية من أفعال عربية فزعموا أن هوارة من تهور، وأن سبتة من سبت. . . إلخ.

(٢) محمد حسن، **الأصول التاريخية**. . .، م. س، ص ١١٥.

(٣) الحسن الوزّان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط، الشركة المغربية لدور النشر المتحدة، ١٩٨٠، ج١، ص ٥٧.

(٤) نفسه، ص ٣٣ ـ ٣٤.

ومهما كان الأمر، فسنحاول في هذا البحث تتبع مدى انتشار الأمازيغية ليس كلغة للتخاطب والتداول بين أفراد المجتمع المغربي في العصر الوسيط فحسب، بل أيضاً كأساليب وصيغ اعتمدت في الدعوات الإصلاحية ومناهضة الدول التي حكمت المغرب الأقصى في العصر الوسيط، مع محاولة الوقوف على خريطة توزيع اللهجات الأمازيغية المتعددة داخل المجال المغربي، مركّزين دراستنا على فترة زمنية تمتد من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي إلى نهاية حكم الموحدين سنة ٦٦٨هـ.

I ـ اللغة الأمازيغية كلغة للتواصل في مجتمع المغرب الوسيط

جسَّدت الأمازيغية رغم تعدد لهجاتها اللغة "الأم" لساكنة مغرب العصر الوسيط. وقد سُمِّيت كذلك نسبةً إلى شعب الأمازيغ، وهم بربر المغرب الأقصى الذين أطلقوا على أنفسهم هذا الاسم الذي يعني "الرجل الحرّ"، وعُرفت في المصادر باسم "أول أمزيغ" ومعناه الكلام النبيل[(١)]، وكذلك باسم "تامزيغت" أو الشلحة[(٢)]، بينما عُرفت في كتب المناقب باسم اللسان الغربي أو العجمي[(٣)]، في حين أشير إليها في معظم المصادر العربية باسم "اللسان البربري"[(٤)]. وقد وصفها ابن خلدون بقوله: «ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميِّزة بنوعها»[(٥)]. أما عن سبب تسميتها بـ "البربرية"، فقد زعم نفس المؤرخ أن أفريقش بن قيس لمّا سمع رطانة أهالي المغرب وصفهم بالبربر، فسميت لغتهم بذلك بربرية؛ ويضيف في موضع آخر بأن حرف "الكاف" أكثر ما يجيء في هذه اللغة[(٦)]. ورغم ضراوة المقاومة التي ووجهت بها السلطة العربية من طرف البربر بعيد الفتح الإسلامي تحت مظلة المذهب الخارجي، فإن هؤلاء لم يناهضوا اللغة العربية رغم كونها لغة الغالب، بل أقبلوا على تعلّمها باعتبارها لغة القرآن والشريعة الإسلامية[(٧)].

---

(١) م. ن، ص ٣٣.

(٢) مارمول، **إفريقيا**، الترجمة العربية، الرباط، المعارف الجديدة/ دار نشر المعرفة، ١٩٨٤، ج١، ص ١١٦.

(٣) التميمي، **كتاب المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد**، تحقيق محمد الشريف، منشورات كلية الآداب بتطوان، ٢٠٠٢، سلسلة الأطاريح الجامعية ٤، ج٢، ص ٣٦.

(٤) انظر على سبيل المثال: ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٧٤، ج٢، ص ٢٨٣.

(٥) **كتاب العبر**، تحقيق خليل شحادة، بيروت، دار الفكر، ١٩٨١، ج٦، ص ١١٦ ـ ١١٧.

(٦) **المقدمة**، تحقيق عبد الواحد وافي، مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٥٢، ج١، ص ٢٦٠.

(٧) محمد حسن، **الأصول التاريخية**... م. س، ص ١١٦.

ويبدو أن الامتزاج الذي حصل بين العرب والأمازيغ عبر العصور، جعل بعض المفردات العربية تدخل إلى اللغة الأمازيغية كما تؤكّد ذلك شهادة الحسن الوزان الذي أمدنا إلى جانب ذلك برأي مهمّ يشير فيه إلى أن البعض حاول تفسير دخول المفردات العربية إلى الأمازيغية بصحة وجهة النظر التي تنحو إلى إثبات الأصل اليمني للشعب الأمازيغي(١)، وهو رأي سبق أن ناقشناه في دراسة سابقة(٢).

لكن مع إقرارنا بأن الفتح العربي أحدث انقلاباً في المسار اللغوي، وأسفر عن إقبال الزعامات البربرية على تعلّم اللغة العربية، فإن الأمازيغية احتفظت بوزنها وثقلها داخل الكيان الاجتماعي المغربي، خاصة وأن انتشار العربية في أوساط العامة سار بإيقاع بطيء(٣)، وبقيت هذه اللغة تقتصر على القضايا الدينية والأدبية والمراسلات وسك العملة(٤). كما ظل انتشارها محصوراً في المدن دون البوادي(٥)، وإنْ كان بعض الباحثين يُخالفنا الرأي، ذاهباً إلى القول إن الأرياف كانت مجالاً للتعريب كذلك(٦). لكن إذا نظرنا إلى المسألة من زاوية التطور التاريخي، يبدو أن المدن كانت مركز استقطاب العرب في بداية الفتوحات، ومن ثم فمن البديهي أن تجتاح موجة التعريب المجال الحضري أولاً قبل الأرياف، بل إن الحواضر الكبرى نفسها استمرت في التمسك بالأمازيغية لغة للتداول(٧). وفي هذا الصدد، يرى الباحث نفسه أنها استمرت

---

(١) **وصف إفريقيا**، م. س، ج١، ص ٣٣.

(٢) انظر: إبراهيم القادري بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٨، ص ١٢ ـ ١٥.

(٣) Deverden, G., *Marrakech dès origines à 1912*, Rabat, 1959, Tom 1, p. 30.

(٤) ظلت المسكوكات المرابطية والموحدية والمرينية تُكتب بالحروف العربية مثل العملة المرابطية التي كتب فيها: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وتحت ذلك «أمير المسلمين يوسف بن تاشفين»، وكتب في الدائرة: «ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين». انظر ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، ١٩٧٣، ص ١٣٧ ـ ١٣٨. كما ورد في بعض النقوش الموحدية: «الله ربنا ـ محمد رسولنا ـ القرآن إمامنا ـ القرآن حجة الله». انظر شعبان عبد الرحيم، «المسكوكات الموحدية في تاريخ المغرب الوسيط»، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، خزانة كلية الآداب بالرباط، ١٩٩٥، ص ٢١٠ ـ ٢١١.

(٥) Terrasse, H., *Histoire du Maroc dès origines à l'établissement du protectorat*, Casablanca, 1946, T. 1, p. 203.

(٦) محمد حسن، **الأصول التاريخية...**، م. س، ص ١٢٨.

(٧) يذكر الحسن الوزان أن «اللغة المستعملة في مراكش هي البربرية». انظر: **وصف إفريقيا**، م. س، ص ٣٤.

سائدة داخل المنازل، واستطاعت المرأة البربرية أن تحافظ أكثر من الرجل على لغتها بحكم قلة اتصالها بالعالم الخارجي(١).

ورغم الجهود التي بذلها الأدارسة من أجل نشر اللغة العربية وتعميمها في أوساط المغاربة(٢)، فإن هذه المحاولة لم تفلح في إقصاء الأمازيغية من التداول في أوساط عامة الناس، ولم تنتشر العربية سوى بشكل محدود في أوساط العلماء(٣). ومما يعزّز هذا الرأي قيام المتنبئ حاميم بابتداع "قرآن" بالأمازيغية زعم أنه أُوحي إليه به(٤). وهذه الخطوة في حد ذاتها تنهض دليلاً على أن هذا المتنبئ فطن إلى أن مشروعه لا يمكن أن ينجح في قبيلة غمارة التي احتضنت حركة نبوَّته في شمال المغرب الأقصى، إلا باستعمال اللغة الأمازيغية التي كانت متجذرة فيها.

نفس الشيء يقال عن إمارة برغواطة(*) التي شرّع زعماؤها ما شرّعوه من بدعٍ وخاطبوا رعاياهم وأنصارهم بالأمازيغية أيضاً(٥). بل إن أحد الخلفاء الأمويين في الأندلس، وهو الحكم المستنصر، استعان بمترجم يُدعى عيسى بن داود المسطاسي للتفاهم مع مبعوث كان قد أرسله إليه أحد الأمراء البرغواطيين سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م(٦).

ورغم انضمام الأندلس إلى حظيرة الدولة المغربية في عصر المرابطين، وما تمخّض عن هذا الانضمام من تغلغل للنفوذ العربي داخل النسيج الاجتماعي المغربي بسبب هجرة كبار علماء الأندلس العرب نحو مراكش وفاس ومختلف الحواضر المغربية، فإن "الغزو" الثقافي الأندلسي لم يفلح في إقصاء اللغة الأمازيغية، وحسبنا أن الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين (٤٥٢ ـ ٥٠٠هـ/ ١٠٦٠ ـ ١١٠٦م)، لم يكن هو نفسه يعرف اللغة العربية، ولم يكن يتحدّث سوى اللغة الأمازيغية، بدليل أنه عندما أرسل إليه أمير إشبيلية المعتمد بن عباد رسالة الاستغاثة لإنقاذ الأندلس من التحرّشات المسيحية ـ وكانت مكتوبة باللغة العربية ـ اضطر أحد أفراد حاشيته إلى أن يترجمها له

(١) محمد حسن، **الأصول التاريخية...**، م. س، ص ١١٥.

(٢) حسين مؤنس، **معالم من تاريخ المغرب والأندلس**، القاهرة، ١٩٨٠، دار ومطابع المستقبل بالفجالة بالقاهرة/ صفية زغلول بالإسكندرية، ص ١٥٧.

(٣) Gautier: *le Passé de l'Afrique du Nord: les siècles obscurs*. Paris, Payot, p. 394.

(٤) ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، م. س، ص ٩٨ ـ ٩٩.

(*) قامت في غرب المغرب الأقصى بمنطقة تامسنا في المنطقة المعروفة حالياً بسهل الشاوية ودكالة.

(٥) البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، نشره دي سيلان، الجزائر، ١٩١١، ص ١٤٠.

(٦) م. ن، ص ١٣٥؛ ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق بروفنسال وكولان، بيروت، ١٩٨٠، ج١، ص ٢٢٣.

«باللسان البربري»[١]. بل من المحتمل أن تكون الأمازيغية هي التي "غزت" الأندلس عندما انتقلت مع موجة الهجرات البربرية نحوها، فأصبحت سائدة هناك في بعض الأوساط الرسمية والشعبية على السواء. ينهض دليلاً على ذلك ما ذكره ابن الخطيب في ترجمة الوزير سماجه، أحد وزراء عبد اللّه بن بلقين أمير غرناطة، حين نعته بأنه كان يتحدث «باللسان البربري مع عبيده»[٢]، ناهيك عن الأزجال الأندلسية التي دخلتها المفردات البربرية كما سنذكر فيما بعد.

أما في المغرب الأقصى، فكانت الأمازيغية واسعة الانتشار. ولا غرو فإن سكان مراكش ظلوا يتحدثون بها إلى أواخر القرن السادس عشر الميلادي، كما تُثبت ذلك شهادة مارمول المتوفى سنة ١٥٩٩م[٣]. وفي نفس السياق أشار ابن الخطيب إلى تداولها بين أهالي أزمور[٤]. ويستشف من نازلة وردت عند الونشريسي أن بعض سكان الحواضر كانوا يستعملون اللغة الأمازيغية في مجال العبادات والابتهالات خلال أداء الصلاة، إذ ورد فيها أن أحد الناس سأل «عمّن لا يعرف العربية، هل له أن يدعو بالبربرية في صلاته أم لا؟ فأجاب (الونشريسي) بأن قال: نعم الله أعلم بكل لغة»[٥].

ومن البديهي أن تكون الأمازيغية أكثر انتشاراً في البوادي والجبال. فإذا استثنينا بعض الشخصيات من ساكنة هذه المجالات والتي كانت تنتمي للنخب السياسية أو المثقفة مثل ابن تومرت الذي عُرف بإتقانه اللغتين العربية والأمازيغية[٦]، فإن تداول هذه الأخيرة في الجبال والأرياف مسألة لا يرقى إليها الشك. فقد أسلفنا القول إن مناطق جبال الريف التي كانت تقطنها قبائل غمارة المعروفة بكثافتها السكانية، إضافةً إلى سكان سهل برغواطة، كانوا لا يتحدثون سوى الأمازيغية. ونعتقد أن نفس الحالة سادت في بوادي وجبال الأطلس بدليل أن المتصوف الشهير أبو يعزى بسبب عدم إلمامه باللغة العربية، كان يستعمل لغته الأمازيغية أثناء دعواته وابتهالاته إلى الله[٧]، بل اضطر في

---

(١) الناصري، **كتاب الاستقصا لدول المغرب الأقصى**، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٥٤، ج٢، ص ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) **الإحاطة**، م. س، ج٢، ص ٢٨٣.

(٣) مارمول، **إفريقيا**، الترجمة العربية لمحمد حجي، الرباط، ١٩٨٨ ـ ١٩٨٩، ج٢، ص ٥٧.

(٤) **معيار الاختيار**، تحقيق محمد كمال شبانة، المحمدية، فضالة (د. ت)، ص ٥٩.

(٥) الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، تحقيق مجموعة من الباحثين، منشورات وزارة الأوقاف المغربية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨١، ج١، ص ١٨٦.

(٦) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، تحقيق إحسان عباس، بيروت (د. ت)، ج٥، ص ٤٦.

(٧) التميمي، **المستفاد**. . .، م. س، ص ٣٣، ٣٦.

حواره مع أحد الفقهاء إلى مترجم باللسان العربي حتى يستوعب خطابه[١]. ويُفهم من خلال المصادر أن تعامله مع مريديه كان يتم باللغة الأمازيغية أيضاً[٢]. وقد نقل الغبريني عنه نصّاً أمازيغياً أثنى به على قطب المتصوفة أبي مدين شعيب الغوث، دفين مدينة تلمسان[٣].

وفي نص أورده ابن الزيات، في سياق حديثه عن المتصوف أبي ملجوط الهزميري، أنه «قام وتكلم على المصامدة بلسانهم»[٤]، مما يكشف عن سيادة اللهجة المصمودية في هذا المجال الجغرافي، وهو ما يعضده نص آخر ورد عند المراكشي يصف فيه طريقة كانت نساء تينمل بجبال الأطلس المغربية ينهجنها للتعبير عن تأييدهن للمهدي بن تومرت، إذ كن يصدحن بالزغاريد ويضربن على الدفوف ويهتفن باللسان الأمازيغي للتعبير عن صدق دعوة زعيمهم المذكور[٥]. كما أن قراءة كتب ومؤلّفات ابن تومرت في المجتمع الموحدي كانت تتم أيضاً باللغة الأمازيغية[٦]. ولم تخلُ بعض المؤلّفات العربية ذاتها من استعمال ألفاظ أمازيغية تُعتبر دخيلة على اللغة العربية، إلا أنها كانت شائعة الاستعمال في الحياة اليومية. ولا غرو، فقد أورد البيدق في كتابه **أخبار المهدي بن تومرت وبداية الموحدين** مجموعة من المصطلحات البربرية مثل "أسراك" الذي يعني مربط الخيل، و"إيمين تكمي" الذي يشير إلى معنى باب المنزل... وغيرها من المصطلحات البربرية[٧].

من جهة أخرى، يمكن للباحث أن يستنتج من خلال الأسماء الشخصية المتداولة في مجتمع مغرب العصر الوسيط مدى ارتباط هذا المجتمع باللغة الأمازيغية. فقد ذكرت بعض المصادر أن الزعيم الموحدي المهدي بن تومرت شرح لبعض من سأله عن سبب تسمية والده باسم "تومرت" وما يحمله من معنى، بأن أمه سعدت به عند

---

(١) ابن الزيات، **كتاب التشوف**، تحقيق أحمد التوفيق، الدار البيضاء ١٩٨٤، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ص ٢١٨.

(٢) التميمي، **المستفاد**...، م. س، ص ٣٧.

(٣) **عنوان الدراية**، تحقيق عادل نويهض، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط٢: ١٩٧٩، ص ٢٣. وهذا هو النص الأمازيغي: «إيشار أمان أندلسي».

(٤) ابن الزيات، **التشوف**، م. س، ص ٤٠١.

(٥) المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد العربي العلمي ومحمد سعيد العريان، الدار البيضاء، دار الكتاب، ط٧: ١٩٧٨، ص ٤١٦.

(٦) م. ن، ص ٤٨٥.

(٧) قام الباحث ميلود التوري بجمع هذه الألفاظ الأمازيغية الواردة في كتاب البيدق، انظر: **الحركة اللغوية**...، م. س، ص ١٨١ ـ ١٨٢.

ولادته فخاطبته بالأمازيغية: «ياك ياك تومرت» بمعنى «صار فرحاً وسروراً»، ومنذئذ غلب عليه اسم "تومرت"[1]. كما أن ابن تومرت نفسه كان يدعى "أسافو" وهو اسم أمازيغي معناه الضياء[2].

وبالرجوع إلى كتاب **التشوّف**، يُلاحظ الباحث ورود العديد من الأسماء الأمازيغية للأشخاص الذين ترجم لهم، كما يلاحظ أن معظمهم كان ينتمي إلى مجال البادية[3]. ولا يخامرنا شك في أن دراسة الأعلام والمواقع والمدن الواردة في مختلف المصادر المتاحة إلى جانب أسماء النباتات والأشجار تفصح عن استمرارية اللغة الأمازيغية في أوساط مجتمع المغرب الوسيط.

على صعيد آخر، تنبث في ثنايا بعض المصادر نصوص أوردها مؤلِّفوها بصيغتها الأمازيغية. فقد أورد البكري[4] مجموعة من المصطلحات الأمازيغية في روايته حول إمارة برغواطة مثل: "ابسمن ياكش"، ومعناه بسم الله، و"مفر ياكش" ومعناه الكبير الله، وغيرها من التعبيرات الأمازيغية. كما تفرّد البيدق[5] بذكر نص بالأمازيغية في سياق حديثه عن الخليفة الموحدي عبد المومن بن علي (٥٤١ ـ ٥٥٨هـ/ ١١٤٦ ـ ١١٦٢م)، وهو يخاطب قبيلة هرغة بقوله: «مازكغ ورانغ تقيسم نغ يوشك والدّي كرا نغيدون يسنلكمّن»، وهو نص يشير معناه بالعربية إلى لوم الخليفة المذكور لهذه القبيلة التي صنعت طعاماً بعد وفاة زعيمها ابن تومرت ولم تُشركه في نصيبها.

وحسب نفس المؤرِّخ الذي لا نشك في أنه كان يتحدث لهجة من اللهجات الأمازيغية إلى جانب اللغة العربية البسيطة، فإن جباة الضرائب في أواخر العصر المرابطي كانوا يتحدثون بالأمازيغية. تنهض دليلاً على ذلك رواية ذكر فيها أنه عندما أراد ابن تومرت وجماعة من أنصاره اجتياز نهر أم الربيع، اعترضهم جباة الضرائب وخاطبوهم بالأمازيغية طالبين منهم أداء مكس مقابل المرور، فأجابهم ابن تومرت باللهجة الأمازيغية بقوله: «آو مورن ملولنين إن سوس آداون نلك»، ومعناه بالعربية:

---

(١) البيدق، **المقتبس من كتاب الأنساب**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، ١٩٧١، ص ٢٧.

(٢) ابن خلدون، **كتاب العبر...**، م. س، ج٦، ص ٣٠١.

(٣) انظر التراجم الآتية على سبيل المثال: رقم ٢٣، ٣٧، ٦١، ١٠١، ١٣٦، ١٨٠، ٧٧، ٩٠، ٢١٣، ٢١٠، ٢١٧، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥٣.

(٤) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، م. س، ص ١٣٩، ١٤٠.

(٥) **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، ١٩٧١، ص ٢١.

«إنما السبيل للمسلمين وأنتم تقطعونها، وهذا غير جائز في الشرع»[1].

بيد أن ما يدعو إلى الاستغراب وطرح أسئلة الاستفهام في هذه الرواية، ما ورد في تتمتها من أن رفاق المهدي بن تومرت لم يكونوا على علم بأن زعيمهم كان يعرف الأمازيغية حق المعرفة حتى تحدث مع جباة الضرائب عند وصول الوفد إلى نهر أم الربيع. فهل معنى ذلك أن المناطق الأخرى التي مرّ بها مهدي الموحدين قبل وصوله إلى هذه المنطقة لم تكن فيها الأمازيغية لغة تخاطب، أم أن التواصل اللغوي بين الشيخ ـ ابن تومرت ـ وتلامذته كان يتم باللغة العربية فقط؟ أم أن الظروف لم تتح له إبراز ملكاته في اللغة الأمازيغية حتى أتاحتها له عندما تحدث بها مع جباة الضرائب؟ أم أن هناك لهجات أمازيغية أخرى كان يتمّ بها التداول في الجهات والمناطق التي مرّ فيها ولم يكن يعرف التحدّث بها؟ وفي هذه الحالة كيف كان ابن تومرت يمرّر خطاباته الدعائية، باللغة العربية أم بلهجات أخرى؟

ثمة ما يشير إلى وجود لهجات أمازيغية متنوّعة في الوسط الاجتماعي لمغرب العصر الوسيط، ولكن المصادر لا تعطينا للأسف سوى معلومات هزيلة بما في ذلك ابن خلدون نفسه، الذي تحدث عن اللغة البربرية في صيغة المفرد وليس في صيغة الجمع، مما يتعذّر معه استخراج كافة اللهجات التي تتفرّع عن هذه اللغة.

بيد أنه يمكن استناداً إلى مجموعة من المؤشّرات النصّية والإيماءات العابرة أن نستشف بعض الخطوط العامة لخريطة توزُّع اللّغات واللّهجات. فحسب مارمول الذي عاش في نهاية العصور الوسطى، يُستنتج بأن مناطق التجمعات البربرية القريبة من التجمعات العربية، أي كل المناطق التي كانت تشكل خط تماس بين العرب والبربر، كانت تتحدث بلهجة أمازيغية ممزوجة بكثير من المصطلحات العربية، وربما يقصد بذلك اللهجة الزناتية[2]. أما سكان غمارة وكل البربر المستقرّين بين الأطلس الكبير والمحيط الأطلسي، فيذكر أنهم كانوا يتحدثون لغة عربية فاسدة، ويحتمل أن تكون لهجة بربرية في الأصل، ولكنها تأثرت بالعربية نتيجة هجرات القبائل العربية في العصر الموحدي ثم المريني وما نجم عن ذلك من تعريب في أوساط البربر.

لكن إقحام مارمول لمنطقة غمارة ضمن المناطق التي تتحدّث لغة عربية "فاسدة" أمر يحوم حوله الشك. فقد أسلفنا القول استناداً إلى أقوال المؤرّخين أن المتنبئ حاميم اضطر إلى كتابة "قرآنه" بالأمازيغية التي كانت لغة أهل غمارة خلال القرن الرابع

---

(1) م. ن، ص ٢٦.

(2) **إفريقيا**. . .، م. س، ج١، ص ١١٦.

الهجري، واستمرت ظاهرة التنبؤ بعد حاميم وبنفس الصيغة اللغوية حتى العصر الموحدي[1]. ولم يكن بالإمكان أن تتعرّب المنطقة في زمنٍ وجيز، بل إن المنطقة لم تشهد أي هجرة من هجرة القبائل العربية التي يمكن أن تعرّبها. وعلى العكس يبدو أن سكان غمارة ظلّوا متمسكين بالأمازيغية، ومن الراجح أنهم كانوا يتحدثون لهجة من لهجاتها، وهي "تاريفت"، وهو ما يفسّر قول ابن أبي زرع عن حاميم: «وجعل لهم قرآناً يقرأونه بلسانهم»[2]. ومن المحتمل أن هجرات القبائل العربية المتأخرة، وما تمخض عنها من امتزاج لغوي، جعل سكان غمارة يُقبلون على التحدث بالعربية، لكن ذلك تم بشكل بطيء تمخض عنه ميلاد هذه العربية "الفاسدة" التي أشار إليها مارمول.

أما الجهات المغربية الأخرى المتبقية فكانت جميعها تتحدث، حسب مارمول، الشلحة أو تامزيغت[3]، أو اللهجة المصمودية كما يثبت ذلك نصّان أحدهما ورد عند ابن الزيات السالف الذكر[4]، بينما ورد الثاني عند المراكشي في سياق حديثه عن مجموعة بشرية تنتمي إلى قبيلة هرغة، يعرفون بـ "ايسرغينن"، وهو مصطلح يقصد به الشرفاء بلسان المصامدة حسب نفس المؤرِّخ[5]. ويبدو أن لهجة قبيلة جنفيسة كانت حسب شهادة نفس المؤرِّخ من أجود اللهجات وأفصحها[6].

ومن اللافت للانتباه أن بعض الزجّالين المغاربة والأندلسيين استعملوا بعض المصطلحات الأمازيغية في أزجالهم. ونسوق في هذا الصدد ملعبة الكفيف الزرهوني التي وظف فيها ألفاظاً بربرية مثل: أزغار، وآيت، وإسردان، وتاسا... وغيرها[7].

من حصاد ما تقدم يتبين أن اللغة الأمازيغية ظلت رغم الفتح العربي لبلاد المغرب اللغة المتداولة في أوساط مجتمع المغرب الأقصى، إلى جانب مساحات محدودة سادت فيها اللغة العربية، وهو ما اعتبره باحث معاصر نموذجاً «للتعايش السلمي بين

---

(١) انظر: إبراهيم القادري بوتشيش، **الإسلام السري في المغرب العربي**، القاهرة، سينا للنشر، ١٩٩٥، ص ٣٧.

(٢) **القرطاس**، ص ٩٩؛ ابن خلدون، م. س، ج٦، ص ٢٨٨.

(٣) **إفريقيا...**، م. س، ج١، ص ١١٦.

(٤) **التشوف**، م. س، ص ٤٠١.

(٥) المراكشي، **المعجب**، م. س، ص ٢٦٢.

(٦) م. ن، ص ٤٨٢.

(٧) ملعبة الكفيف الزرهوني. نقلاً عن: أحمد المحمودي، «عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي»، أطروحة دكتوراه (مرقونة)، جامعة مولاي إسماعيل بمكناس، ١٩٩٩ - ٢٠٠٠، ج٢، ص ٢٢٧.

حضارتين»[١]. وقد تمخض عن هذا التعايش استعمال تراكيب وصيغ بربرية غربية داخل اللغة العربية نفسها وحدوث اللحن فيها، لأن بعض المخارج الصوتية مثل العين لا تنطق بالبربرية فيتحوّل لفظ "عبد اللّه" إلى "بادلة"[٢]، مما يعكس استمرارية تأثير اللغة الأمازيغية، ويفنّد بالتالي تخريجات بعض الكتابات الأجنبية التي نعتت الثقافة الأمازيغية بالثقافة العاجزة التي فشلت في التصدّي للثقافات الغازية ومنها لغة العرب حسب زعمهم[٣].

II ـ اللغة الأمازيغية وأشكال توظيفها في مجال الدعوات والحركات الإصلاحية

يركِّز ابن خلدون في نظرياته التاريخية على مقولتَيْ الدعوة الدينية والعصبية القبلية ودورهما في قيام الدول، ويبرز بفطنة وتبصُّر العلاقة الجدلية بين المقولتين. ولم تكن هذه النظريات الخلدونية سوى ترجمة أمينة لقراءته الواعية للتاريخ المغربي. ولا غرو، فإن زعماء الدعوات الدينية والحركات الإصلاحية المغربية فطنوا إلى أن نجاح حركاتهم رهنٌ بمدى تواصلهم اللغوي مع فئات "الجماهير" أو العصبيات القبلية التي تشكّل خزاناً بشرياً يمدّها بكل أشكال المساندة والدعم. ولما كانت لغة هذه الفئات هي اللغة الأمازيغية، فقد سعى هؤلاء الزعماء إلى استثمارها وتوظيفها في دعواتهم. وقد ذكرنا سابقاً أن هذه الفكرة لم تغبْ عن العديد من قادة الحركات مثل المتنبئ حاميم الذي فطن إلى ضرورة كتابة "قرآنه" بالأمازيغية في منطقة غمارة التي كانت لا تعرف سوى هذه اللغة. ونفس الفكرة راودت الزعامات البرغواطية التي لم تأتِ، كما وصفها أحد الدارسين، كرد فعل سلبي ضد العروبة الحضارية واللغوية[٤]، بقدر ما كانت تهدف إلى جعل دعوتها تستند إلى اللغة السائدة لدى قبائل المنطقة. بل إن هذه القاعدة في أسلوب الدعوات لم تخفَ حتى على الزعامات السنيّة مثل داعية المرابطين عبد الله بن ياسين، الذي لم يتوانَ عن استعمال الأمازيغية لشرح أهداف حركته الإصلاحية واستقطاب الأنصار، سواء داخل الرباط الذي أنشأه في إحدى جزر المحيط الأطلسي، أم داخل القبائل التي اتصل بها ليبثّ دعوته. ولم يقع اختيار وجاج بن زلو عليه

---

(١) محمد حسن، **الأصول التاريخية**، م. س، ص ١١٦.

(٢) م. ن، ص. ن.

(٣) Marcais, W., «Arabisation des villes», *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales*, 1938, p. 1.

(٤) محمد حسن، **الأصول التاريخية**. . .، م. س، ص ١٣١.

بمحض الصدفة، بل جاء نتيجة معرفته بلهجة قبيلة صنهاجة البربرية في المقام الأول[١].

أما ابن تومرت، فقد كان أكثر الدعاة ذكاءً في توظيف اللغة الأمازيغية للتمهيد لقيام دولته، ومن ثم الوصول إلى السلطة. فإلى جانب ما أسلفنا ذكره حول استعماله الأمازيغية لغة في النهي عن المنكر من خلال نموذج جُباة الضرائب، تجمع المصادر على أنه ألَّف للمصامدة كتاب «التوحيد» باللغة الأمازيغية، وهو كتاب يشمل سبعة أحزاب، تبدأ بمعرفة الذات الإلهية وسائر العقائد التي قام بترجمتها جميعاً إلى الأمازيغية[٢]، فضلاً عن كتاب المرشدة.

نفس الشيء يقال عن كتابَيْ «القواعد» و«الإمامة» اللذين دوّنهما الزعيم الموحدي بالعربية والبربرية كلتيهما. وكان لهذه الترجمة البربرية أثر إيجابي في كسب القلوب وتكوين الأتباع. وفي هذا السياق يقول صاحب **الحلل الموشية** معلقاً: «وألف لهم كتاباً سمّاه بالقواعد، وآخر سمّاه بالإمامة، هما موجودان بأيدي الناس إلى هذا العهد، ودوّنهما بالعربي والبربري، وكان أفصح الناس في اللسان العربي واللسان البربري ينقل بهما إليهم المواعظ والأمثال، ويقرّب لهم المقاصد، فجذب نفوسهم واستجلب قلوبهم»[٣]. وهو نصٌّ يشي بأهمية دور اللغة الأمازيغية في إنجاح الدعوة واستقطاب الأنصار.

وإلى جانب الكتب السالفة الذكر، ألف ابن تومرت في مجال الدعاية لحركته كتباً أخرى بنفس اللغة نذكر من بينها: «أعانت» و«أكوصت» و«تاركون إن ييسار» و«نوفنا لمدان رب العلمين»[٤].

ولم يفت الملزوزي ـ وهو المؤرخ الذي نهج أسلوب التأريخ بالأراجيز ـ أن ينظم في إحدى أرجوزاته ما يشير إلى التحوّل الذي جسّده كتاب «التوحيد» في حقل الأسلوب الدعائي المكتوب بالأمازيغية[٥].

وعلى نفس المنوال، سعى إلى جعل الأمازيغية وسيلة للتعليم وتكوين أنصار

---

(١) إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي: قراءات جديدة في بعض قضايا الحضارة والمجتمع**، بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٤، ص ٦٢.

(٢) مؤلّف مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، م. س، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

(٣) م. ن، ص. ن.

(٤) عثرنا على أسماء هذه الكتب في إحدى نسخ «محاذي الموطأ» الموجودة بقسم المخطوطات والوثائق بالخزانة العامة بالرباط، ص ١٣٤.

(٥) مما جاء في أرجوزته حول عقيدة التوحيد وترجمتها إلى الأمازيغية: =

الموحدين، وحسبنا أنه كان يدرّسهم عقيدة التوحيد بهذه اللغة[١]. كما لم يتوانَ عن استعمالها في المساجد وخطب الجمعة وتحريض الأتباع. وقد اشترط في خطباء المساجد في المغرب الأقصى أن يكونوا على دراية كاملة باللسانين العربي والبربري[٢]. كما كان من عادات الموحدين وتقاليدهم المتبعة أن يقرأوا مؤلَّفاته بالأمازيغية عند ركوب الخليفة في المحافل الرسمية[٣]. ولعلّ هذا الأسلوب التومرتي في التركيز على اللغة الأصلية يحيلنا على ما قام به زعماء الإصلاح الديني في أوروبا المسيحية إزاء اللغة اللاتينية[٤].

وبالمثل، سعى الخليفة الموحدي عبد المومن بن علي إلى حثّ الطلبة والحُفَّاظ المكلفين بالدعاية ونشر المذهب الموحدي بين القبائل البربرية على استخدام اللغة الأمازيغية كوسيلة للتواصل والتبليغ. ولا غرو، فقد ورد في إحدى رسائله إلى طلبة بجاية ما يلي: «ويؤمر الذين يفهمون اللسان الغربي ويتكلّمون به أن يقرأوا التوحيد بذلك اللسان من أوله إلى آخر القول في المعجزات ويحفظوه»[٥].

من جهة أخرى، يُلاحظ أن الموحدين استعملوا أيضاً الأمازيغية وسيلة لمخاطبة جنودهم وتحميسهم للإستماتة في القتال. وهو ما حدث أثناء محاصرتهم مدينة فاس وانتزاعها من يد المرابطين[٦]، وكذلك إبان حصارهم مدينة مكناسة حيث تمّ استعمال التعبيرات الأمازيغية المصمودية مثل «ذأ امطيرايا» من قِبَلِ قائد عسكري موحدي لإخبار جيشه باندهاشه بجيش خصمه المرابطين وكثرته ودقّة تنظيمه[٧].

وفي نفس السياق، أي استعمال الأمازيغية في النظام العسكري، يذكر ابن غازي[٨]، أنه بمجرد شعور المرابطين بهجوم الموحدين عليهم ومحاصرتهم في مدينة

=

فجاءهم في الحين بالتوحيد — مخاطباً بالوعد والوعيد

ألفه قيلا بلفظ البربر — بالعشر والأحزاب ثم السور

انظر: الملزوزي، **نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، ١٩٦٣.

(١) المراكشي، **المعجب**، م. س، ص ٢٧٤؛ ابن أبي زرع، **القرطاس**، م. س، ص ١٨١.

(٢) محمد المنوني، **حضارة الموحدين**، الدار البيضاء، دار توبقال، ١٩٨٩، ص ١٠٦.

(٣) المراكشي، **المعجب**، م. س، ص ٤٨٥.

(٤) Bel, (A), *La religion Musulmane en Berberie*, Librairie Orientaliste, 1938, p. 248.

(٥) بروفنسال، **مجموع رسائل موحدية**، ص ١٣٢ ـ ١٣٧.

(٦) البيدق، **أخبار المهدي**، م. س، ص ٦١.

(٧) ابن غازي، **الروض الهتون**. . . ، م. س، ص ٩.

(٨) **الروض الهتون**، الرباط، مطبعة الأمنية، ١٩٥٢، ص ٥ ـ ٦.

مكناسة، بدأوا في بناء حصن سموه "تاكرارت"، وهو اسم بربري معناه "المحلّة"، وهو مركز عسكري يُستعمل للتحصّن والدفاع. وعندما أظهر أصحاب هذا الحصن ضروباً من الشجاعة، رجع المبعوث الذي كان قد أرسله الخليفة الموحدي عبد المومن، فأبدى إعجابه ببسالة المرابطين وخاطبه في ذلك «باللسان البربري»[١]، مما يرجّح أن الأمازيغية كانت اللغة الأكثر استعمالاً، وإنْ كان ذلك لا يعني استبعاد العربية في مجال الحروب. شفيعنا في ذلك نصٌّ أورده ابن صاحب الصلاة عن شيخ ألقى في إحدى المعارك الجهادية التي خاضها الموحدون ضد القوى المسيحية خطبة باللغة العربية تارة، وبالبربرية تارة أخرى[٢]، في الحروب.

ولا نستبعد أن يكون زعماء الانتفاضات والتمردات ضد السلطة الموحدية قد فطنوا بدورهم إلى أهمية استعمال اللغة الأمازيغية لإنجاح ثوراتهم، فقد ورد عند صاحب **المعجب**، أن الثائر الجزولي، الذي تمرّد على السلطة الموحدية سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م، كان يُعرف بما معناه في اللسان البربري بـ "ابن الجزارة"، مما يشي بشيوع هذه اللغة وتوظيفها في تمرير الخطابات المناهضة للسلطة[٣]. أما قادة الثورات الذين كانوا يجهلونها، فإنهم تعرّضوا للفشل الذريع كما هو الحال بالنسبة لثائر يدعى عبد الرحمن، وهو من سلالة ملوك القاهرة الفاطميين، إذ باءت ثورته التي قادها في مراكش بالفشل لهذا السبب بالذات، وهو ما عبّر عنه المراكشي بقوله: «ولم يزل ينتقل في قبائل البربر من موضع إلى موضع، وفي ذلك كله لا يستقيم له أمر ولا تثبت عليه جماعة، أوجب ذلك كله كونه غريب البلد و**اللسان**»[٤].

ويبدو أنه مع حلول القرن الثامن الهجري، بدأت عملية التعريب تكتسح العديد من الحواضر والمناطق المجاورة لها، ولم يعد أثرها يقتصر على النخبة السياسية والمثقفة، بل شملت أيضاً الشرائح الاجتماعية الأخرى. ومن ثم بدأت الأمازيغية تعرف بعض التراجع في المناطق القريبة من الأوساط الحضرية، وهذا ما يُفسِّر قول الحميري، وهو يتحدث عن مدينة فاس: «وسكن حولها قبائل من البربر، لكنهم يتكلّمون العربية»[٥]. ويعزو البعض هذا التراجع إلى هجرة القبائل الهلالية، وإلى النقص

---

(١) م. ن، ص. ن. ومما قاله: «ذأ أمطيرايا»، ومعناها: «هذا عجب».
(٢) ابن صاحب الصلاة، م. س، ص ٤١١.
(٣) **المعجب**، م. س، ص ٤٤٩.
(٤) م. ن، ص ٤٦٥.
(٥) **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ط٢: ١٩٨٤، ص ٤٣٤.

الديموغرافي الذي أصاب بعض المناطق البربرية نفسها من جراء الأوبئة والمجاعات، أو بسبب المشاركة المستمرة للبربر في الحملات العسكرية التي كان يشرف عليها الجهاز الحكومي المغربي[1].

ومع ذلك لا يمكن تقدير مستوى التراجع الذي عرفته الأمازيغية في نهاية العصور الوسطى لأن النصوص لا تجيب إلا بكيفية شاحبة، ولا تسمح للبحث التاريخي بإلقاء الكثير من الأضواء.

حصيلة القول إن اللغة الأمازيغية في الغرب الإسلامي الوسيط تظل محاطة بكثير من الغموض والإبهام لقلّة النصوص الواردة حولها. لكن تتبّع النصوص القليلة المتاحة تجعل الباحث يستشف أنها كانت لغة التواصل رغم سيادة العربية في المجالات الأدبية والعلمية، وأنها كانت تنقسم إلى لهجات متباينة، وقد تم استثمارها من طرف الدعاة والمتنبئين وزعماء الحركات الإصلاحية لإنجاح مشاريعهم السياسية والدينية، مما يدلّ على أهميتها في خريطة التطوّر التاريخي لمغرب العصر الوسيط.

---

(١) Camp, *op. cit.*, pp. 15, 18.